المرأة والحب في الأندلس على مرآة طوق الحمامة[1]

د. خليل محمد إبراهيم

مدرس الأدب الأندلسي

في الكلية التربوية المفتوحة سابقاً

مقدمة

تعد رسالة (طوق الحمامة في الألفة والألاف) لـ(ابن حزم الأندلسي) رسالة مهمة مقروءة من الكثيرين، فقد حظيت بنشرات كثيرة، وطبعات أكثر، لمحققين متعددين ومتنوعين؛ كل منهم حقق الكتاب لغرض، وليس من شأن هذا الموضوع المتواضع؛ تتبع النشرات أو الطبعات، ولا أسباب التحقيق، لكن من شأن هذا البحث أن ينبه إلى أنه ذكر الأبواب التي اقتبس منها بعض المقتبسات؛ مع ذكر عناوين الأبواب كي يمكن لمن لا يملك طبعة الباحث المعتمدة من الكتاب أن يعود إلى أية طبعة أخرى يستعين بها مستفيدا من رقم الباب أو من عنوانه أو منهما معا بحسب النشرة التي يعود إليها، كما أن من حق من يهتم بهذا البحث أن يعرف أن لهذا البحث سببا هو:- أن الباحث لاحظ بعض وسائل الإعلام المتنوعة؛ تحرض على رفض الحب، فرأى أن يعرض هذا الكتاب؛ مبينا في أثناء العرض أن هناك جملة كثيرة من الفقهاء والمفكرين العرب والمسلمين؛ تناولت موضوعة الحب، فأباحتها، فكيف نرفض هذا الأمر؛ في وقت ندعو فيه إلى الرحمة والمودة؟! ثم أن المراد بالحب ليس مجرد العلاقة الخاصة، بين الرجل والمرأة؛ مع أن هذا طبيعي مقبول دينيا فقد جاء في القرآن الكريم -أهم مصدر تشريعي للأمة الإسلامية- ((وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ))[2] فإذا كان الله -سبحانه وتعالى- قد جعل خلق الأزواج من أنفسنا آية من آياته وجعل المودة رابطة بين الزوجين، ففيمَ يقف الواقفون ضد الحب، وهم يذهبون إلى أنهم مؤمنون؟!

ليس من واجب هذا الموضوع الإجابة عن هذا السؤال، لكنه من واجب غيره، فله أن يجيب عنه إن وجد جوابا علميا مناسبا.

استغراب (ابن حزم) تبسم فقيه للحب:- الكثيرون يستغربون انشغال (ابن حزم) -الفقيه- بالحب؛ ظانين أن التعامل مع الحب، ليس من شأن الفقيه، ومنهم (ابن حزم) -نفسه- الذي استغرب تبسم فقيه حين ذُكِر عنده الحب فقال:- ''وأذكر في مثل هذا أني كنت مجتازا في بعض الأيام بقرطبة في مقبرة باب عامر، في لُمّة من الطلاب وأصحاب الحديث، ونحن نريد مجلس الشيخ أبي القاسم عبد الرحمن بن أبي يزيد المصري بالرصافة أستاذي رضي الله عنه، ومعنا أبو بكر عبد الرحمن بن سليمان البلوي من أهل سبتة، وكان شاعرا مفلقا وهو ينشد لنفسه في صفة متجنّ معهود أبياتا له، منها:-

سريع إلى ظهر الطريق وإنه إلى نقض أسباب المودّة يسرع

يطول علينا أن نرقّع وُدّه إذا كان في ترقيعه يتقطّع

فوافق إنشاد البيت الأول من هذين البيتين، خطور أبي علي الحسين بن علي الفاسي رحمه الله تعالى وهو يؤم أيضا مجلس ابن أبي يزيد، فسمعه، فتبسم رحمه الله نحونا وطوانا ماشيا وهو يقول:- بل إلى عقد المودة إن شاء الله، فهو أولى، هذا، على جدّ أبي الحسين علي رحمه الله، وفضله وتقرّبه، وبراءته ونسكه، وزهده وعلمه. فقلت في ذلك:-

دعْ عنك نقض مودتي متعمّدا واعقد حبال وصالنا يا ظالم

ولترجعنّ، أردته أو لم ترد، كرها لما قال الفقيه العالم''[٣]

وهذا الاستغراب؛ غريب، لان اغلب من كتبوا عن الحب -في العهد القديم- كانوا من فقهاء المسلمين أو من متفقهيهم أو من فلاسفتهم وأطبائهم ومنهم:-

١- أبو محمد جعفر بن احمد السراج (ت ٥٠٠ هـ =١١٠٦م) وله:- مصارع العشاق[٤].

٢- جمال الدين أبي الفرج عبد الرحمن ابن الجوزي البغدادي (ت ٥٩٧ هـ) وله:- ذم الهوى[٥].

٣- أحمد بن يحيى بن أبي حجلة المغربي (ت ٧٧٦ هـ = ١٣٧٥ م) وله:- ديوان الصبابة[٦].

٤ - داود الأنطاكي الطبيب (ت ١٠٠٨هـ =١٥٩٩ م) وله: -كتاب (تزيين الأسواق بتفصيل أشواق العشاق). وهو تلخيص وتهذيب لكتاب(أشواق العشاق)[٧]

وهكذا نجد العلماء –مشارقة ومغاربة- يعنون بالكتابة في هذا الباب، ومن الطبيعي أن ينشغل الفقهاء بمسألة الحب، إذ أن هذه المسألة من المسائل التربوية المحكومة –عند المسلمين- بالحِل أو الحرمة، والفقه محل تحديد هاتين المسألتين، فليس انشغال فقيه أو مجموعة فقهاء بمسألة الحب؛ خارج نطاق عملهم بل هو من صميم هذا العمل، فانشغال (ابن حزم) –الفقيه- بالمرأة والحب أمر طبيعي.

غرض الكتاب

تحدث الكثيرون عن الشأن النفسي[٨] والاجتماعي والأدبي والفقهي لطوق الحمامة ونسوا إشارة بطرس البستاني إلى أنه كتاب في السياسة[٩]، ولأن بطرس البستاني لم يسوغ هذه المسألة بتحليل أو تعليل، ولأهمية هذه المسألة فقد تتبعتها وناقشتها في أطروحتي لنيل درجة الدكتوراه[١٠] .

فبينما تكلم عن الحب، أراد الدعاية لأصفيائه من الأمويين الذين أمل أن يكون هذا الكتاب سهما أخيرا من سهام المحافظة على دولتهم الزائلة في الأندلس، فكان الحب موضوع الكتاب وكانت الدعاية لبني أمية غرضه.

يتصور الكثيرون أن (طوق الحمامة في الألفة والألاف)؛ مجرد كتاب يتحدث عن النساء، يتعرض لشأنهن، في حين أنه يتعرض للمجتمع كاملا فيعرض على مرآته المتسعة الكثير من أحوال الحب، وأول ما يبدأ به حديثه عن الود القائم بينه وبين من طلب إليه إنشاء رسالة يحدثه فيها عن الحب وأغراضه، فأجابه حين ألف رسالة (طوق الحمامة في الألفة والألاف) يقول:- ''ثم لم ألبث أن اطلع علّي شخصك وقصدتني بنفسك، على بعد الشقة، وتنائي الديار، وشحط المزار، وطول المسافة، وغول الطريق، وفي دون هذا ما سلى المشتاق ونسى الذاكر، إلا من تمسك بحبل الوفاء مثلك، ورعى سالف الأذمَّة، ووكيد المودّات، وحق النشأة، ومحبة الصبا، وكانت مودته لله تعالى.

ولقد أثبت الله بيننا من ذلك ما نحن عليه حامدون وشاكرون، وكانت مغازيك في كتابك زائدة على ما عهدته من سائر كتبك، ثم كشفت إلي بإقبالك غرضك، وأطلعتني على مذهبك، سجيةً لم تزل علينا من مشاركتك لي في حلوك ومرّك وسرّك وجهرك، يحدوك الوُدّ الصحيح الذي أنا لك على أضعافه، لا ابتغي جزاء غير مقابلته بمثله. وفي ذلك أقول مخاطبا لعبيد الله ابن عبد الرحمن بن المغيرة ابن أمير المؤمنين الناصر رحمه الله في كلمه لي طويلة وكان لي صديقاً: -

أودّكَ وداً ليس فيــه غضاضة وبعض مودات الرجال سراب

وأمحضتك النصح الصريح وفي الحشى لِودك ظاهرٌ وكتـاب[١١]

فلو كان في روحي هواك اقتلعته ومزق بالكفين عنه إهـاب

ومــا لي غير الود منك إرادةٌ ولا في سواه لي إليك خطاب

إذا حزته فالأرض جمعـاء والورى هباء وسكان البلاد ذبـاب''[١٢]

ففي هذه القطعة يتحدث عن الود القائم بينه وبين طالب المعرفة لشأن الحب، وهما رجلان، ينشد له خمسة أبيات تتحدث عن وده لـ(عبيد الله بن عبد الرحمن بن المغيرة) وهما رجلان أيضاً، فليس الحب –عند (ابن حزم)- شأناً يربط بين الرجال والنساء فحسب، لكنه كما يوجد بين الرجال والنساء، فهو موجود بين الرجال المتوادين، كما يوجد بين النساء المتوادات ولكل من هذه المسائل ما يدل عليه من الأحداث المبسوطة في هذا الكتاب.

ومن الغريب أنه ذكر في -الباب الرابع باب من أحب بالوصف- ثلاثة أخبار هو بطلها أحب فيها رجلا قبل أن يراه فلما رآه أبغضه ثم تحدث عن أخر وكانا متباغضين فلما التقيا تحابا وكان الثالث رجلاً دام بينهما الود حتى وقت كتابة الكتاب فلا توجد امرأة في هذه الأخبار بل لا توجد الإشارة إلى حب ربات القصور المحجوبات بالوصف دون أن يذكر خبراً يدلل به على ما يقول كدأبه، لكن ذلك لم يمنع من ذكر خبر في باب المساعد من الأخوان، وهو خبر جارية تحملت الأذى من امرأة، فلم تفشِ سر فتاة محبة فبدا التحابب والتباغض بين النساء كما هو بين الرجال.

سبب تأليف الكتاب

يتحدث (أبن حزم) عن سبب تأليف الكتاب قائلا لصاحبه الذي أرسل إليه:- ''وكلفتني –أعزك الله– أن أصنف لك رسالة في صفة الحب ومعانيه وأسبابه وأعراضه، وما يقع فيه، وله، على سبيل الحقيقة، لا متزيدا ولا مفننا، لكن مورداً لِما يحضرني على وجهه وبحسب وقوعه، حيث انتهى حفظي وسعة باعي فيما أذكره، فبدرت إلى مرغوبك. ولولا الإيجاب لك لما تكلفته، فهذا من اللغو، والأولى بنا مع قصر أعمارنا ألا نصرفها إلا فيما نرجو به رحب المنقلب، وحسن المآب غدا. وإن كان القاضي حمام بن أحمد حدثني عن يحيى بن مالك عن عائد بإسناد يرفعه إلى أبي الدرداء أنه قال: أجمّوا النفوس بشيء من الباطل ليكون عونا لها على الحق''[١٣].

مبيناً أن الحب من اللغو الذي يحسن بالإنسان أن يبتعد عن البحث فيه لكنه مع ذلك يُسوِّغ هذا البحث بجملة من أقوال الصالحين منهم (القاضي حمام بن أحمد) -وهو أندلسي- يسند الحديث مرفوعا إلى(أبي الدرداء) -وهو من الصحابة المرضي عنهم- أفكان متردداً في أمر الحب؟ أم هو يعرض تردد الفقهاء خاصة والناس عامة في هذا الأمر؟!

سؤال يجدر التفكير به.

منهجه في تأليف الكتاب

بعد أن سوغ (أبن حزم) أمر الكتابة عن الحب؛ حدد منهجه في هذا الغرض فقال:- ''والذي كلفتني -به- لابد فيه من ذكر ما شاهدته حضرتي، وأدركته عنايتي، وحدثني به الثقات من أهل زمانه، فاغتفر لي الكناية عن الأسماء، فهي إما عورة لا نستجيز كشفها، وإما نحفظ في ذلك صديقاً ودوداً ورجلا جليلا.

وبحسبي أن أُسّمي من لا ضرر في تسميته، ولا يلحقنا والمسمّى عيب في ذكره، إما لاشتهار لا يغني عنه الطّي وترك التبيين، وإما لرضى المخبر عنه بظهور خبره، وقلة إنكار منه لنقله''[١٤]. فهو -بهذا- يبين أنه لن يذكر أسماء من

يتعرض لهم إلا إذا كان ذكر هذه الأسماء لا يضيرها ولا يضر بها، وهو منهج ناتج عن التردد في مسألة الحب.

يؤكد هذا التردد تخوفه من أن الشعر الذي سينشده لنفسه في هذه الرسالة؛ قد يؤخذ على الحقيقة الواقعة؛ لا على تصور المشاهد حين يقول:- ''وسأورد في رسالتي هذه أشعارا قلتها فيما شاهدته، فلا تنكر أنت ومن رآها علي أني سالك فيها مسلك حاكي الحديث عن نفسه، فهذا مذهب المتحلين بقول الشعر''[١٥]، ومن منهجه التأكيد على أنه يتكلم عما شاهده أو نقله له الثقات -عنده- بلا تزيّد ولا تفنن متجاوزا أخبار الأعراب لأن الذين سبقوه ذكروها، ومنهجه غير منهجهم وخطته غير خططهم فهو لا ينضي مطاياهم ولا يستعير حلاهم؛ يتحلى بها يقول:- ''و التزمت في كتابي هذا الوقوف عند حدك، والاقتصار على ما رأيت، أو صح عندي بنقل الثقات، ودعني من أخبار الأعراب والمتقدمين، فسبيلهم غير سبيلنا، وقد كثرت الأخبار عنهم، وما مذهبي أن أنضي مطية سواي، ولا أتحلى بحلي مستعار''[١٦] ثم يقسم رسالته إلى ثلاثين باباً ''منها في أصول الحب عشره''[١٧] ومنها في أعراض الحب وصفاته المحمودة والمذمومة اثنا عشر باباً''[١٨] يذكرها ليقول:- ''ومنها في الآفات الداخلة على الحب ستة أبواب''[١٩] ثم ينهي الكتاب ببابين يقول عنهما:- ''ومنها بابان ختمنا بهما الرسالة وهما:- باب الكلام في قبح المعصية وباب في فضل التعفف ليكون خاتمة إيرادنا وآخر كلامنا الحض على طاعة الله عز وجل والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فذلك مفترض على كل مؤمن''[٢٠]....الخ، فهذه ثلاثون باباً جمعها (ابن حزم) لمن يحب أن يتعرف على الحب شؤونه وشجونه.

شيء عن الكتاب

في الباب الأول -من أبواب طوق الحمامة؛ (ماهية الحب)- صور (ابن حزم) الحب بقوله:- ''الحب –أعزك الله– أوله هزل وآخره جد، دقت معانيه لجلالتها، عن أن توصف، فلا تدرك حقيقتها إلا بالمعاناة''[٢١]، فهو لا يجد تعريفاً للحب، ويتركه للمعاناة، حيث يعرف الحب بالممارسة لا من خلال الشعر والكتب، ثم يبين

أن الحب ''ليس بمنكر في الديانة ولا بمحظور في الشريعة، إذ القلوب بيد الله عز وجل''[٢٢]، على هذا الأساس يعدد جمله من أمراء الأمويين وخلفائهم في الأندلس ممن أحب ويعقب على ذلك قائلا:- ''ولولا أن حقوقهم على المسلمين واجبه – وإنما يجب أن نذكر من أخبارهم ما فيه الحزم وإحياء الدين، إنما هو شيُ كانوا ينفردون به في قصورهم مع عيالهم فلا ينبغي الأخبار به عنهم– لأوردت من أخبارهم في هذا الشأن غير قليل. وأما كبار رجالهم ودعائم دولتهم فأكثر من أن يحصوا''[٢٣]، وقد تحدث عن ''كلف المظفر بن عبد الملك بن أبي عامر بواجد بنت رجل من الجنانين[٢٤] حتى حمله حبها أن يتزوجها''[٢٥]، ويبدو أنه ذكر ذلك لتصوره غرابته، إذ كيف يتزوج رجل مثل(المظفر) بـ(واجد)؛ من بنات الفلاحين؟!

وتكلم عن رجلين من المشرق شغفهما الحب أحدهما خليفة فاطمي هو (نزار بن معد) وثانيهما من فقهاء المدينة المنورة السبعة هو (عبد الله بن عتبة بن مسعود) ثم قال:- ''وقد جاء من فتيا ابن عباس رضي الله عنه ما لا يحتاج معه إلى غيره حين يقول: هذا قتيل الهوى، لا عقل ولا قود''[٢٦]، وهو لا يُعرِّف الحب ولا يقبل تعريفه من أحد فقد ذهب إلى ما يرى أنه الحب وناقش ما ذهب إليه (محمد بن داود) حين قال:- ''وقد أختلف الناس في ماهيته[٢٧] وقالوا وأطالوا، والذي أذهب إليه أنه اتصال بين أجزاء النفوس المقسومة في هذه الخليقة في أصل عنصرها الرفيع، لا على ما حكاه محمد بن داود رحمه الله، عن بعض أهل الفلسفة: الأرواح أُكَر مقسومة لكن على سبيل مناسبة قواها في مقر عالمها العلوي، ومجاورتها في هيئة تركيبها[٢٨].

وقد علمنا أن سر التمازج والتباين في المخلوقات إنما هو الاتصال والانفصال. والشكل دأبا يستدعي شكله، والمثل إلى مثله ساكن، وللمجانسة عمل محسوس وتأثير مشاهد، والتنافر في الأضداد، والموافقة في الأنداد، والنزاع فيما تشابه موجود فيما بيننا، فكيف بالنفس، وعالمها العالم الصافي الخفيف، وجوهرها الجوهر الصعاد المعتدل، وسِنْخها المهيأ لقبول الاتفاق والميل والتوق والانحراف والشهوة و النفار؛ كل ذلك معلوم بالفطرة في أحوال تصرف الإنسان فيسكن إليها، والله عز وجل يقول: ''هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ

إِلَيْهَا ''[٢٩] ''فجعل علة السكون أنها منه''[٣٠]، وهكذا يستند (ابن حزم) إلى جملة من الفقهاء المسلمين، ومنهم (ابن عباس) (رض) –صاحب النبي (ص) وابن عمه- يقرون الحب بين الرجال والنساء. ومع أنه معني بالجمال والخلق إلا أنه لا يرى أنهما السببان الوحيدان للحب من هنا فهو يقول:- ''ولو كان علة الحب حسن الصورة الجسدية، لوجب ألا يستحسن الأنقص من الصورة، ونحن نجد كثيراً ممن يؤثر الأدنى ويعلم فضل غيره، ولا يجد محيدا لقلبه عنه؛ ولو كان للموافقة في الأخلاق، لما أحب المرء من لا يساعده ولا يوافقه. فعلمنا أنه شئ في ذات النفس. وربما كانت المحبة لسبب من الأسباب، وتلك تفنى بفناء سببها، فمن ودّك لأمر، ولّى مع انقضائه.''[٣١]، وهكذا يكشف عن غموض الحب في نفسه وفيه همسة خفيفة إلى حبه لبني أمية؛ الذين يعلم أنهم ليسوا الأحسن جمالا ولا خلقا فقد آذوه وآذوا أباه وأسرته، ومع ذلك فقد بقي مخلصا في حبهم، لأنه متمسك بحبه للقديم، وكذا يمكن تلمس مظاهر هذا الحب ومصاديقه في أثناء الكتاب. يستمر (أبن حزم) في الحديث عن الحب بين الناس مبينا ما يشابهه في الطبيعة مثل تجاذب الحديد مع المغناطيس حتى يصل إلى قوله:- ''والحب أعزك الله، داء عياء، وفيه الدواء منه على قدر المعاملة، ومقام مستلذ، وعلة مشتهاة لا يود سليمها البرء، ولا يتمنى عليلها الإفاقة. يزين للمرء ما كان يأنف منه، ويسهل عليه ما كان يصعب عنده، حتى يحيل الطبائع المركبة والجبلة المخلوقة. وسيأتي كل ذلك ملخصا في بابه إن شاء الله''[٣٢].

وفي الباب الثاني يتحدث عن علامات الحب فيقول:- ''وللحب علامات يقفوها الفطن، ويهتدي إليها الذكي.

فأولها إدمان النظر، والعين باب النفس الشارع، وهي المنقّبة عن سرائرها، المعبّرة لضمائرها، والمعربة عن بواطنها، فترى الناظر لا يطرف، يتنقل بتنقل المحبوب وينزوي بانزوائه، ويميل حيث مال كالحرباء مع الشمس''[٣٣]،... ويستمر في تعداد علامات الحب حيث يقول:- ''ومنها الإقبال بالحديث''[٣٤]، ''ومنها الإسراع بالسير نحو المكان الذي يكون فيه... والتباطؤ في المشي عند القيام عنه وفي ذلك أقول شعراً:

وإذا قمت عنك لم أمش إلا مشي عانٍ يقاد نحو الفناء
في مجيئي إليك أحتث كالبد ر إذا كان قاطعا للسماء
وقيامي إن قمت كالأنجم العا لية الثابتات في الإبطاء

ومنها بهت يقع و روعة تبدو على المحب عند رؤية من يحب فجأة، وطلوعه بغتة ومنها اضطراب يبدو على المحب عند رؤية من يشبه محبوبة، أو عند سماع أسمه فجأة. وفي ذلك أقول قطعة منها:

إذا ما رأت عيناي لابس حمرة تقطع قلبي حسرة وتفطرا
غدا لدماء الناس باللحظ سافكا وضرج منها ثوبه فتعصفرا''[٣٥]

''وهذه العلامات تكون قبل استعار نار الحب، وتأجج حريقه، وتوقد شعله، واستطارة لهبه. فأما إذا تمكن وأخذ مأخذه فحينئذ ترى الحديث سرارا، والإعراض عن كل من حضر إلا عن المحبوب جهارا ولي أبيات جمعت فيها كثيرا من هذه العلامات، منها:

أهوى الحديث إذا ما كان يذكر لي فيه ويعبق لي عن عنبر أرج
إن قال لم أستمع ممن يجالسني إلى سوى لفظة المستطرف الغنج
ولو يكون أمير المؤمنين معي ما كنت من أجله عنه بمنعرج
فإن أقم عنه مضطرا فإني لا أزال ملتفتا والمشي مشي وجي
عيناي فيه، وجسمي عنه مرتحل مثل ارتقاب الغريق البر في اللجج
أغص بالماء إن أذكر تباعده كمن تثاءب وسط النقع والوهج
وإن تقل: ممكن قصد السماء، أقل نعم! وإني لأدري موضع الدرج!''[٣٦]

ويواصل وصف علامات الحب حتى يقول:- ''ومنها علامات متضادة، وهي على قدر الدواعي والعوارض الباعثة، والأسباب المحركة، والخواطر المهيجة، والأضداد أنداد، والأشياء إذا أفرطت في غايات تضادها. ووقفت في انتهاء حدود اختلافها، تشابهت، قدرة من الله عز وجل تضل فيها الأوهام؛ فهذا الثلج إذا أدمن حبسه في اليد فعل فِعل النار، ونجد الفرح إذا أفرط قتل، والضحك إذا كثر واشتد، أسال الدمع من العينين.

وهذا في العالم كثير، فنجد المحبين إذا تكافيا في المحبة، وتأكدت بينهما تأكدا شديدا، أكثر بهما جدهما بغير معنى، وتضادهما في القول تعمدا، وخروج بعضهما على بعض في كل يسير من الأمور، وتتبع كل منهما لفظة تقع من صاحبه وتأولها على غير معناها، كل هذه تجربة ليبدو ما يعتقده كل واحد منهما في صاحبه. والفرق بين هذا، وبين حقيقة الهجرة والمضادة المتولدة عن الشحناء ومحارجة التشاجر، سرعة الرضى''[٣٧] ومع أن في بعض الأبيات غزلا رقيقا إلا أن فيها ما يدل على أنه نظم الشعر حيث نجد المصطلح العلمي بارزا فيه وفيه تكلف واضح فإذا ما انتهى من ذكر علامات الحب ذاكرا ما ذكر من الأخبار المدعمة بالأشعار انتقل إلى حيث يمكن للشخص أن يجد محبوبه أو أن يجد الطريقة التي تمكنه من الحب فالباب الثالث ''باب من احب في النوم''[٣٨] معرض ذلك، فهو يعترف بغرابة هذا الأمر وعجائبيته ويذكر عنه خبرا وقع لصاحب له هو قوله:- ''دخلت يوما على أبى السري عمار بن زياد صاحبنا مولى المؤيد''[٣٩]...الخ، حيث أحب جارية رآها في نومه ظل يفكر فيها نحوا من شهر وأن (ابن حزم) حاول أن يسليه عنها حتى سلا وقد دعم هذا الخبر بأبيات هي:-

''يا ليت شعري من كان وكيف سرت أطلعة الشمس أم كانت هي القمر؟
أظنه العقل أبداه تدبره أو صورة الروح أبدتها لي الفكر
أو صورة مثلت في النفس من أملي فقد تحير في إدراكها البصر
أو لم يكن كل هذا فهي حادثة أتى بها سببا في حتفي القدر''[٤٠]

وفي الباب الرابع (باب من أحب بالوصف) يرتقي من الحب في النوم إلى الحب بالوصف فيقول:- ''ومن الغريب أن تقع المحبة بالوصف دون المعاينة، وهذا أمر يُترقَّى منه إلى جميع -أعراض- الحب، فتكون المراسلة والمكاتبة، والهم والوجد، والسهر على غير الإبصار، فإن للحكايات، ونعت المحاسن، ووصف الأخبار، تأثيرا في النفس ظاهرا.

وأن تسمع نغمتها من وراء جدار، فيكون سببا للحب واشتغال البال. وهذا كله قد وقع لغير ما واحد، ولكنه عندي بنيان هارٍ على غير أسٍّ وذلك أن الذي أفرغ ذهنه في هوى من لم ير، لابد له إذ يخلو بفكره، أن يمثل لنفسه صورة يتوهمها، وعينا

يقيمها نصب ضميره، لا يتمثل في هاجسه غيرها، قد مال بوهمه نحوها. فإن وقعت المعاينة يوما ما، فحينئذ يتأكد الأمر أو يبطل بالكلية؛ وكلا الوجهين قد عرض وعرف، وأكثر ما يقع هذا، في ربات القصور، المحجوبات من أهل البيوتات، مع أقاربهن من الرجال وحب النساء في هذا أثبت من حب الرجال لضعفهن وسرعة إجابة طبائعهن إلى هذا الشأن، وتمكنه منهن، وفي ذلك أقول شعرا منه:

ويا من لامنـــي في حب من لم يره طرفي
لقد أفرطت في وصفك لي في الحب بالضعف
فقل: هل تعرف الجنة يوما بسوى الوصف؟''[٤١]

وهنا يخالف شعره ما ذهب إليه من قوله:- ''وهذا عندي بنيان هارٍ على غير أُسٍّ'' إذ كيف يكون الحب بالوصف بنيانا هاريا من غير أس مع أن حب الجنة خالط القلوب بالوصف، فمن الذي رأى الجنة؟

وهو يؤكد هذا المعنى بقوله:-

''لقد وصفوك لي حتى التقينا فصار الظن حقا في العيان
فأوصاف الجنان مقصرات على التحقيق عن قدر الجنان''[٤٢]

وإذ انتهى من باب من أحب بالوصف ارتقى إلى الباب الخامس وهو باب (من أحب من نظرة واحدة)[٤٣]؛ قال:- ''وكثيرا ما يكون لصوق الحب بالقلب من نظرة واحدة وهو ينقسم قسمين''[٤٤]، فالقسم الأول حديثه عن رجل هو يوسف بن هارون الشاعر المعروف بـ(الرمادي)، الذي أحب امرأةً رآها في سوق العطارين مرة واحدة زعمت أن اسمها (خلوة) وخدعته عن رؤيتها فلم يرها بعد ذلك على الرغم من متابعته إياها وتحريه عن أخبارها وسفره وراءها[٤٥] في حين أن الثاني كان عن امرأة من ذوات الحجاب رأت رجلا مرة واحدة ورآها فتحابا وتراسلا ولم ينقطع ذلك على الرغم من الصعوبات التي لم يشأ (ابن حزم)؛ أن يذكرها، فهذا دليل على احتمال ثبات الحب من نظرة واحدة خلافا لما قاله ''فمن أحب من نظرة واحدة، وأسرع العلاقة من لمحة خاطرة فهو دليل على قلة الصبر، ومخبر بسرعة السلو، وشاهد الظرافة والملل. وهكذا في جميع الأشياء: أسرعها نموا، أسرعها

فناء، وأبطؤها حدوثا، أبطؤها نفادا''[٤٦] وفي هذا ما يشعر بأن الرجل لم يدقق وإنما قال ما جاء على ذهنه وهو ما نبه إليه في التمهيد ضمن منهجه. لأنه يعتقد هذا الاعتقاد وقد ثبت هذا في الباب السادس ''باب من لا يحب إلا مع المطاولة ''[٤٧] حيث قال:- ''و من الناس من لا تصح محبته إلا بعد طول المحادثة وكثير المشاهدة ومتمادي الأنس، وهذا الذي يوشك أن يدوم، ويثبت، ولا يحيك فيه مر الليالي، فما دخل عسيرا، لم يخرج يسيرا، وهذا مذهبي''[٤٨] وواضح أنه يقدم المسألة متشككا، إذ يبدأ كلامه بقوله ''ومن الناس'' كما يستعمل كلمة ''يوشك'' وهذا يعني أنه متشكك، لكنه مذهبه أو ما يصف به نفسه من شدة الألفة للأشياء إذا ما طال الزمن الذي يربطه بها يقول: ''وما لصق بأحشائي حب قط إلا مع الزمن الطويل، وبعد ملازمة الشخص لي دهرا ، وأخذي معه في كل جد وهزل، وكذلك أنا في السلو والتوقي، فما نسيت لي ودا قط، وأن حنيني إلى كل عهد تقدم لي، ليغصني بالطعام، ويشرقني بالماء وقد استراح من لم تكن هذه صفته''[٤٩]، ويستمر بالحديث عن نفسه بهذا الشكل الذي لا يؤدي به إلى رفض الحب من نظرة واحدة فحسب لكن يؤدي به إلى رفض محبة اثنين في وقت واحد إذ يقول:- ''ومن هذا دخل الغلط على من يزعم أنه يحب اثنين، ويعشق شخصين متغايرين، فإنما هذا من جهة الشهوة التي ذكرناها آنفا، وهي على المجاز تسمى محبة، لا على التحقيق، وأما نفس المحب فما في الميل به فضل يصرفه من أسباب دينه ودنياه، فكيف بالاشتغال بحب ثان؟ وفي ذلك أقول:''[٥٠]...الخ وأنشد ستة أبيات من شعره تمثل فيها بأمور دينية وعقلية تمنع اشتراك اثنين في قلب واحد.

يتلو تلك الأبيات بحديث عن فتى لم يسمه زعم أن النساء لا يشغفن به لأول وهلة حتى إذا ما خالط الواحدة منهن فجامعها استأثر بحبها ويعقب على ذلك بقوله:- ''فمثل هذا وشبهه إذا وافق أخلاق النفس ولد المحبة، إذ الأعضاء الحساسة مسالك إلى النفوس ومؤديات نحوها.''[٥١] وهذا كلام يزيد على موضوع المخالطة، إذ أن الرجل والمرأة لا يصلان إلى الجماع إلا بعد تزوج أو تملك أو تعشق وهذا أكثر من مجرد المخالطة، فلم يقدم -بهذا الخبر- دليلا على طول المخالطة المؤدية إلى الحب، خصوصا وأن الحب شيء والجماع شيء أخر، قد يترتب على

الحب وقد لا يترتب عليه، وعندي أن حب الشخص لشخص أخر في النوم؛ أمرٌ بعيد الاحتمال، وإن وقع، فاحتمال وقوعه ناتج عن تصور شخص معشوق في لا شعور العاشق الذي لم يجده في الواقع، فكمِنَ في لا شعوره، أما الحب الناتج عن الوصف، فهو ممكن، لأنه خيال الواصف يضفي على الموصوف صفاتٍ، يعشقها الموصوف له، فتقع المحبة على الصفات المتخيلة للموصوف، لا على الموصوف ذاته، من هنا يمكن توقع الحب من نظرة واحدة؛ ينظرها الناظر للمنظور إليه، فلا يرى منه غير الظاهر الجميل، فيظنه الواقع؛ نتيجة التعجل وعدم التدقيق أو نتيجة لهما معا، فالناظر محتاجٌ راغب، فهو يقبل بالظاهر المشاهد الذي لا يعبر عن الواقع المنتظر، فيترتب على ذلك ما يترتب على الظمآن المتعجل في الشرب، فقد يقع على ماء صالح للشرب، وكثيراً ما يقع على غيره فيؤذيه ويمرضه.

أما الباب السابع، باب من أحب صفة لم يستحسن بعدها غيرها مما يخالفها،،[٥٢] فقد تخلى عن الحديث عن وقت الحب أو مكانه، وانتقل إلى الصفات المحبوبة، فرأى أن هناك أناسا يحبون صفات بأعيانها لا يتخلون عنها منهم هو وأبوه وأبناء مروان -يريد الأمويين الذين يترحم عليهم- فإنه كان يحب الشَعر الأشقر ولم يحبب سواه وكذلك أبوه وكذلك بنو مروان، فقد كان أغلبهم شقرا -نزاعا إلى أمهاتهم؛ كما يتصور- إلا الظافر، فقد كان أسود الشعر واللحية؛ منبها إلى أن هؤلاء من أهل العقل الذين يميل بعضهم إلى صفات معتادة من الناس تدل على الجمال؛ قد يتخلون عنها إلى ما هو أدنى منها، ويستمرون على ذلك طيلة حياتهم، ويبدو لي أن هذا من الشأن السياسي الذي يلمح إليه في هذا الكتاب، ذلك أنه ينشد في أخر الباب أبياتا يصرح فيها بأن الرايات السود لم تبق للرشاد سبيلا، والرايات السود هي رايات بني العباس خصوم بني أمية الذين قضوا على دولتهم في المشرق يقول:-

يعيبونها عندي بشقرة شعرها ... فقلت لهم: هذا الذي زانها عندي

يعيبون لون النور والتبر ضلة ... لرأي جهول في الغواية ممتد

وهل عاب لون النرجس الغض عائب ... ولون النجوم الزاهرات على البعد؟

وأبعد خلق الله من كل حكمة ... مفضل جرم فاحم اللون مسود

به وصفت ألوان أهل جهنم ولبسة باك مثكل الأهل محتد
ومذ لاحت الرايات سود ا تيقنت نفوس الورى أن لا سبيل إلى الرشد[٥٣]

أما الأبواب الثامن (التعريض بالقول)[٥٤] والتاسع (الإشارة بالعين)[٥٥] والعاشر (المراسلة)[٥٦] فهي الأبواب التي يبدأ بها التواصل بين المتحابين، فيستمر أو ينقطع، فإذا انقطع التواصل انتهى أمر الحب، ولم يعد الحديث عنه لازما؛ من هنا فالمقصود استمرار الحب. أما التعريض بالقول فهو -عند (أبن حزم)- على جنسين، أحدهما أن يعرّض طالب المودة ببيت شعر أو مثل، فيرى انعكاس أثر ذلك في هيئة من يطلب مواصلته أو رده، فإذا تم التواصل؛ جاء الجنس الثاني من جنسي التعريض بالقول، حين يقول أحد المتحابين شيئاً يخالف المطلوب يفهمه المحبوب، فيرد المحبوب عليه بما يفهمه المحب دون غيره إلا إذا كان من أهل الفطنة. ثم يترقى بالحديث من التعريض بالقول إلى الإشارة بالعين حيث يقول:- "ثم يتلو التعريض بالقول إذا وقع القبول و الموافقة، الإشارة بلحظ العين"[٥٧] مبينا ما يمكن أن تدل عليه الإشارة بالعين؛ محددا كل حركة من حركات العين وما يمكن أن تدل عليه فهو يقول:- (وسائر ذلك لا يدرك إلا بالمشاهدة، واعلم أن العين تنوب عن الرسل ويدرك بها المراد، والحواس الأربع أبواب إلى القلب ومنافذ نحو النفس، العين أبلغها، وأصحها دلالة، وأوفاها عملا، وهي رائد النفس الصادق)[٥٨]...الخ. فإذا انقضى أمر التعريض بالقول والإشارة بالعين، جاء دور المراسلة التي يقول عنها:- ''ثم يتلو ذلك، إذا امتزجا، المراسلة بالكتب. وللكتب آفات. ولقد رأيت أهل هذا الشأن يبادرون بقطع الكتب، وبحلها بالماء وبمحو أثرها، فرب فضيحة كانت بسبب كتاب. وفي ذلك أقول:-

عزيز علي اليوم قطع كتابكم ولكنه لم يلف بالود قاطع
فآثرت أن يبقى وداد وينمحي مداد فإن الفرع للأصل تابع
فكم من كتاب فيه ميتة ربه ولم يدره، إذ نمقته الأصابع

وينبغي أن يكون شكل الكتاب ألطف الأشكال، وجنسه أملح الأجناس''[٥٩]. فهو يحاول أن يستوعب كل شئ يتعلق بموضوعه من حيث أسباب المراسلة وآفاتها ولا ينسى شكل الكتاب وضرورة ملاحته ووسائل كتابته من خلط الحبر بالدم أو بالريق

بل كتابته بالدم، وواضح أن هذا قليل، ثم يذكر طرق استقبال الأحبة لكتب محبيهم أو محبوبيهم وأماكن وضعها على العين أو احتضانها أو ما إلى ذلك، كل ذلك دليل على الحب ومع أنه يعد الأبواب العشرة الأولى مجموعة شبه مستقلة، فأنني أشعر بأن بعض الأبواب التالية متداخلة في الأبواب العشرة فباب السفير -وهو الباب الحادي عشر-[٦٠] يمثل شكلا من أشكال المراسلة إلا أنها شفهية؛ من هنا، فهو يتحدث عن اختيار السفير وأهمية هذا الاختيار ويعدد مجموعة من السفراء المعتادين من رجال ونساء فيقول:- "و اكثر ما يستعمل المحبون في إرسالهم إلى من يحبونه، إما خاملا لا يؤبه له، ولا يهتدى للتحفظ منه، لصباه، أو لهيئة رثة أو بذاذة في طلعته. وإما جليلا لا تلحقه الظنن، لنسك يظهره، أو لسن عالية قد بلغها. وما أكثر هذا في النساء، و لا سيما ذوات العكاكيز والتسابيح و الثوبين الأحمرين. وإني لأذكر بقرطبة التحذير للنساء المحدثات من هذه الصفات حيثما رأينها. أو ذوات صناعة يقرب بها من الأشخاص. فمن النساء كالطبيبة، والحجامة، والسرافة، والدلالة، والماشطة، والنائحة، والمغنية، والكاهنة، والمعلمة، والمستخفة، والصناع في الغزل والنسيج، وما أشبه ذلك. أو ذا قرابة من المرسل إليه لا يشق بها عليه. فكم منيع سهل بهذه الأوصاف، وعسير يسر"[٦١]

وهنا أمور لا بأس من لفت النظر إليها أهمها:-

١. أنه يعرف وسائل للإسفار بين الأحبة لا يريد التنبيه إليها والتعريف بها لما يرى أنه يترتب عليها من الإفساد.

٢ـ ألحظُ أن جداتنا وأمهاتنا؛ كن يحذّرن بناتهن وكنائنهن من هاتيك النساء وأمثالهن، وهي خبرة جماعية لا أظن أنها مأخوذة من هذا الكتاب.

٣ـ هذه أعمال؛ يذكر (أبن حزم) أنها كانت للنساء في الأندلس؛ مما يبين أن بعض النساء الأندلسيات؛ كن عاملات.

٤. من الغريب أنه يجمع أربعة أصناف من النساء المختلفات الأعمال فالماشطة (وهي التي تزين النساء للأفراح) تسبق النائحة (التي تنوح في الأحزان) تليها المغنية التي يجدر أن تكون بعد الماشطة؛ تليها الكاهنة، وإذا لم يكن له هدف

غير مذكور من هذا الترتيب، فلعل هذا الترتيب؛ مما يدل على أن الرجل يكتب عفو الخاطر أو ما هو قريب من هذا الأمر وقد وضح ذلك في بداية الكتاب.

وإذ يستوفي الحديث عن سفارة الرجال والنساء بين المحبين -وهو أمر طبيعي- فإنه يخبر خبرا -يوشك أن يكون- عجائبياً في الإسفار بين المحبين إذ يتحدث عن حمامة مؤدبة -مدربة- تسفر بين محبين يُعقد الكتاب في جناحها[٦٢]، وهو مغرم بالغرائب. وكان جديراً به أن يشير إلى أهمية طي السفير لسر المسفر، لكنه لم يفعل وتحدث في الباب الثاني عشر (طي السر)[٦٣] عن كتمان أحد المحبين أو كليهما؛ سر حبه عن الآخرين وقال عن سبب ذلك:- ''وربما يكون السبب في الكتمان تصاون المحب عن أن يَسِم نفسه بهذه السمة عند الناس، لأنه بزعمه، من صفات أهل البطالة فيفر منه ويتفادى، وما هذا وجه الصحيح؛ فبحسب المرء المسلم أن يعف عن محارم الله عز وجل التي يأتيها باختياره، ويحاسب عليها يوم القيامة. وأما استحسان الحسن، وتمكن الحب، فطبع لا يؤمر به، ولا ينهى عنه، إذ القلوب بيد مقلبها، ولا يلزمه غير المعرفة والنظر في فرق ما بين الخطأ والصواب، وأن يعتقد الصحيح باليقين. وأما المحبة فخلقة، وإنما يملك الإنسان حركات جوارحه المكتسبة. وفي ذلك أقول:

يلوم رجال فيك لم يعرفوا الهوى وسيان عندي فيك لاح وساكت
يقولون: جانبت التصاون جملة وأنت عليم بالشريعة قانت
فقلت لهم: هذا الرياء بعينه صُراحا، وزيّ للمرائين ماقت
متى جاء تحريم الهوى عن محمد وهل منعه في محكم الذكر ثابت
إذ ا لم أواقع محرما أتقي به مجيئي يوم البعث والوجه باهت
فلست أبالي في الهوى قول لائم سواء لعمري: جاهر أو مخافت
وهل يلزم الإنسان إلا اختياره وهل بخبايا اللفظ يؤخذ صامت''[٦٤]

وهنا مسألة مهمة يؤكدها هي أن الحب شئ مباح غير محرم في الدين. و(أبن حزم) يذكر شيئا من أخبار كتمان أسرار الحب كما يذكر لهذا الكتمان أسباباً منها قوله:- ''وربما كان سبب الكتمان توقّي المحب على نفسه من إظهار سره، لجلالة قدر المحبوب''[٦٥]. ولو أن كاتبا حديثا كتب هذا الباب، فلعله يعنونه

بقوله:- (طي السر وأسبابه)، ذلك أن أسباب طي السر تغلب على الباب. وبعكسه الباب الثالث عشر (باب الإذاعة)[٦٦] يريد باب إذاعة سر الحب ''وقد تعرض في الحب الإذاعة، وهو من منكر ما يحدث من أعراضه، ولها أسباب منها:

أن يريد صاحب هذا الفعل أن يتزيا بزي المحبين، ويدخل في عدادهم وهذه خلابة لا ترضى، و تخليج بغيض، ودعوى في الحب زائفة.

وربما كان من أسباب الكشف، غلبة الحب، وتسور الجهر على الحياء فلا يملك الإنسان حينئذ لنفسه صرفا ولا عدلا. وهذا أبعد غايات العشق''[٦٧]، ويذكر للإذاعة أسبابا أخرى يوردها؛ ومنها قوله:- ''ومن أسباب الكشف وجه ثالث وهو عند أهل العقول وجه مرذول، وفعل ساقط، وذلك أن يرى المحب من محبوبه غدرا أو ملالا أو كراهة، فلا يجد طريق الانتصاف منه إلا بما ضرره عليه أعود منه على المقصود من الكشف والاشتهار. وهذا اشد العار''[٦٨]، ومنها قوله ''وربما كان الكشف من حديث ينتشر، وأقاويل تفشو، توافق قلة مبالاة من المحب بذلك، ورضى بظهور سره، إما لإعجاب وإما لاستظهار على بعض ما يؤمله''[٦٩]، ويقول كذلك:- ''وقرأت في بعض أخبار الأعراب أن نساءهم لا يقنعن ولا يصدقن عشق عاشق لهن حتى يشتهر ويكشف حبه، ويجاهر ويعلن. وينوه بذكرهن؛ ولا أدري ما معنى هذا؟ على أنه يذكر عنهن العفاف، وأي عفاف مع امرأة أقصى مناها وسرورها، الشهرة في هذا المعنى؟''[٧٠]، ومن حقه أن لا يعلم سبب رغبة بعض الأعرابيات في أن ينوه المحب بها ويحبها، والذي أراه لهذا الأمر أسباب منها أن الغزل شكل من أشكال المديح والإنسان الذي يرى في نفسه اكتمالا؛ يحب أن يعرف فيه هذا الاكتمال، فإذا لم يجد من يشيد به مال إلى الفخر، وبعض الأعرابيات؛ ترى في نفسها ما يستحق المدح -التغزل- فهي تريد من يتغزل بها، ليعلن عما فيها من كمالات، وليس أفضل من المحب، من يعلن عن هذه الكمالات، فهي مع من يحبها على أحد حالين، فأما أن ينالها محبها وتناله بشكل من أشكال العلاقة، وينتهي الأمر إلى ما ينتهي إليه بين الناس، وأما أن تحول التقاليد بين المتحابين -كما حدث بين (قيس) و(ليلى) أو (جميل) و(بثينة) أو (كثير) و(عزة)- ...الخ، فأنه سيعلو شأنها ويرتفع ذكرها وتحمى سوقها، فتجد من

يخطبها، وقد حدث هذا لكل من (ليلى) و(بثينة) و(عزة)، وفي هذا شكل من أشكال الإعلام[٧١] ويبدو أن (ابن حزم) إنما ذكر هذا تنكيلاً بالأعراب وهزأا بالاختيار بين الذين نقلوا أخبارهم، ومنها أخبار نسائهم، وفيه عطف على أنه لا ينضي مطية غيره من ذكر أخبار غير أهل الأندلس وإن كان ذكر بعضها. ومن الطبيعي أن يطيع المحب محبوبه خلافا لما بدأ به الباب الرابع عشر (باب الطاعة)[٧٢] يقول:- ''ومن عجيب ما يقع في الحب طاعة المحب لمحبوبه وصرفه طباعه قسراً إلى طباع من يحب''[٧٣]...الخ، ففيمَ العجب من طاعة المحب لمن يحب؟!

وإذا لم يطِع المحب محبوبه، فمن يطيع؟!

وفي شيء من هذا المعنى يقول بيتين جميلين هما:-

''فهل للوصال إلينا معاد وهل لتصاريف ذا الدهر حد

فقد أصبح السيف عبد القضيب وأضحى الغزال الأسير أسد''[٧٤]

وذكر لطاعة المحب، محبوبه أخبارا وأشعارا منها احتمال المحب ضرب محبوبه إياه[٧٥] وطاعة قاضٍ كبير -سعيد بن منذر بن سعيد البلوطي- جارية له احبها؛ خدعته، فحلق لطلبها لحيته واعتقها في مجلس عام ثم خطبها لنفسه فرفضت خطوبته وقبلت خطوبة أخيه؛ في المجلس نفسه[٧٦]، كما ذكر أخبارا أخرى تبين طاعة المحب لمحبوبه، بسبب أن المحبوب لا يطاوع المحب، و(ابن حزم) يخالف في ذلك، وللناس فيما يعشقون مذاهب.

من هنا جاء الباب الخامس عشر (باب المخالفة)[٧٧] والذي نصه:- ''وربما أتبع المحب شهوته، وركب رأسه فبلغ شفاءه من محبوبه، وتعمد مسرته منه على كل الوجوه، سخط أو رضي، ومن ساعده الوقت على هذا، وثبت جنانه، وأتيحت له الأقدار، استوفى لذته جميعها، وذهب غمه، وأنقطع همه، ورأى أمله، وبلغ مرغوبه. وقد رأيت من هذه صفته. وفي ذلك أبيات منها:

إذا أنا بلغت نفسي المنى من رشأ ما زال لي ممرضاً

فما أبالي الكره من طاعة ولا أبالي سخطا من رضا

إذا وجدت الماء لا بد أن أطفي به مشعل جمر الغضا''[٧٨]

وهذا الباب -كما هو واضح يوشك أن- يعبر عن (ابن حزم) الذي نبه إلى هذا المعنى في باب الطاعة وفي باب المخالفة يقول:- ''وقد رأيت من هذه صفته''[٧٩] فلعله -بهذا- يعبر عن نفسه وعمّن يشبهه، ومشبهوهُ كثيرون.

وإذ تحدث عن طاعة المحب محبوبه أو مخالفته إياه، فقد انتقل إلى آفات الحب وأولها ما تحدث عنه في الباب السادس عشر (باب العاذل)[٨٠] حيث قال:- ''وللحب آفات، فأولها العاذل. والعذال أقسام، فأصلهم صديق قد أسقطت مؤونة التحفظ بينك وبينه، فعذله أفضل من كثير المساعدات فهو من الحض والنهي، وفي ذلك زاجر للنفس عجيب''[٨١]، وذكر قسماً أخر من أقسام العذال حيث قال:- ''ثم عاذل زاجر لا يفيق أبداً من الملامة، وذلك خطب شديد وعبء ثقيل. ووقع لي مثل هذا، وأن لم يكن من جنس الكتاب، ولكنه يشبهه''[٨٢]، وهكذا يستوفي أقسام العذال منتبها إلى أن بعض ما يذكره؛ يخرج عن نهج الكتاب ثم أنه لا يذكر في هذا الباب مخاطر العذل ونتائجه التي قد يلفت النظر إلى بعضها في أبواب الكتاب الأخرى.

(والمساعد من الأخوان)[٨٣] (ضد العاذل) وهو الباب السابع عشر ولعله مطلوبُ كل محب لذلك يقول:- ''ومن الأسباب المتمناة في الحب، أن يهب الله عز وجل، للإنسان صديقاً مخلصا، لطيف القول بسيط الطول، حسن المأخذ، دقيق المنفذ، متمكن البيان، مرهف اللسان''[٨٤] ويذكر من الأحوال الجميلة لهذا المساعد من الإخوان ما يزيد عن صفحة من صفحات الكتاب؛ يعقب على ذلك بقوله:- ''وإن فيه للمحب لأعظم الراحات، وأين هذا؟ فأن ظفرت به يداك فشدهما عليه شد الضنين، وأمسك بهما إمساك البخيل، وصنه بطارفك وتالدك، فمعه يكمل الأنس، وتنجلي الأحزان، ويقصر الزمان، وتطيب الأحوال''[٨٥]...الخ وهو يرى أن للنساء في المساعدة على الحب شأنا سبق جانب منه في باب السفير وهو مؤكد -هنا- بقوله:- ''وما رأيت الإسعاد أكثر منه في النساء، فعندهن من المحافظة على هذا الشأن والتواصي بكتمانه والتواطئ على طيه، إذا أطلعن عليه، ما ليس عند الرجال وما رأيت امرأة كشفت سر متحابين، إلا وهي عند النساء ممقوتة مستثقلة، مرمية عن قوس واحدة. وأنه ليوجد عند العجائز في هذا الشأن، ما لا يوجد عند الفتيات،

لأن الفتيات منهن، ربما كشفن ما علمن على سبيل التغاير، وهذا لا يكون إلا في الندرة، وأما العجائز فقد يئسن من أنفسهن، فانصرف الإشفاق محضا إلى غيرهن''[٨٦]، يؤكد ذلك بخبرين يدلان على ما يقول، ويضيف إلى ذلك قوله:- ''وإنك لترى المرأة الصالحة المسنة، المنقطعة الرجاء من الرجال، أحب أعمالها إليها، وأرجاها للقبول عندها، سعيها في تزويج يتيمة، وإعارة ثيابها وحليها لعروس مقلة، وما أعلم علة تمكن هذا الطبع من النساء، إلا أنهن متفرغات البال من كل شئ إلا من الجماع ودواعيه، والغزل وأسبابه والتآلف ووجوهه، لا شغل لهن غيره، ولا خلقن لسواه. والرجال مقتسمون في كسب المال، وصحبة السلطان، وطلب العلم، وحياطة العيال، ومكابدة الأسفار والصيد، وضروب الصناعات، ومباشرة الحروب وملاقاة الفتن، وتحمل المخاوف، وعمارة الأرض، وهذا كله متحيف للفراغ، صارف عن طريق البُطل''[٨٧]، فهو -بهذا- يسبب ما يقول، ويبين الفرق بين النساء والرجال في هذا الشأن، وكأني به يتصور من ينكر عليه هذه المعرفة فيرد عليه بقوله:- ''ولقد شاهدت النساء، وعلمت من أسرارهن ما لا يكاد يعلمه غيري، لأني ربيت في حجورهن، ونشأت بين أيديهن، ولم أعرف غيرهن، ولا جالست الرجال إلا وأنا في حد الشباب، وحين تفيل وجهي، وهن علمنني القرآن، ورويننني كثيراً من الأشعار ودربنني في الخط، ولم يكن وكدي وإعمال ذهني، مذ أول فهمي وأنا في سن الطفولة جداً، إلا تعرف أسبابهن، والبحث عن أخبارهن، وتحصيل ذلك. وأنا لا أنسى شيئاً مما أراه منهن، وأصل ذلك غيرة شديدة طبعت عليها، وسوء ظن في جهتهن فطرت به فأشرفت من أسبابهن على غير قليل، وسيأتي ذلك مفسرا في أبوابه إن شاء الله تعالى''[٨٨] وهكذا يصرح بسوء ظنه بالنساء على ما ذكر من شأنهن وفضلهن عليه في تعليمهن إياه، ويبدو لي أن الأمهات يربين أبناءهن -غالبا- على عدم الثقة بالنساء خوفا من خطر خطأ إحداهن في حق الزوج أو الأب أو الأخ. وعدم ثقته بالنساء موضَّح في الباب التاسع عشر (باب الواشي)[٨٩] حيث يخبر أن قطر الندى -جارية ابن حذير- قتلته[٩٠] معلقا على ذلك قائلاً:- ''وفي ذلك أقول محذراً لبعض أخواني قطعة منها:

وهل يأمن النسوان غير مغفل جهول لأسباب الردى متأرض

وكم وارد حوضاً من الموت أسود ترشفه من طيب الطعم أبيض''[٩١]

ولـه أن يـرى رأيـه فـي النسـاء أو فـي غيـرهن، لكـن أن يكـون لـه رأي فـي مطلـق النساء، فهو تعميم -لا يصح- في موضع التخصيص، وسيرد في كتابه ما يؤيد رأيه كما سيأتي ما يخالفه، فقد ذكر في باب الوصل[٩٢] رجالا ونساءً يتراوحون ويتراوحْنَ بين العفاف والتطلع إلى الوصل وما بعد الوصل فمن رجل متعفف تغريه جارية ولوع إلى رجل وجارية لا يمتنعان عن الوصل وما هو اكثر منه في حضرة الناس[٩٣] إلى امرأة باتت مع زوجها ليلة مات عنها في دثار واحد[٩٤]، كما تحدث باب الوفاء[٩٥] عن جارية أحبت سيدها الذي مات، فتم بيعها، فامتنعت عن أن تكون لرجل غيره مع الضرب والإيذاء، وقبلت الخدمة وأنكرت إحسانها للغناء للسبب نفسه[٩٦] وهذا غير حديثه عن امرأة تقبل ترابا وطأه معشوقها وتلثمه[٩٧] - في باب القنوع-[٩٨] وعكس الأخ المساعد (الرقيب) -الذي تحدث عنه وعن أقسامه في الباب الثامن عشر[٩٩]- الذي يبدأه بقوله:- ''ومن آفات الحب الرقيب، وإنه لحمّى باطنة، وبرسام مُلِحّ، وفكر مُكِبّ. والرقباء أقسام: فأولهم مثقل بالجلوس، غير متعمد، في مكان اجتمع فيه المرء مع محبوبه، وعزما على إظهار شيء من سرهما، والبوح بوجدهما، والانفراد بالحديث''[١٠٠]. وقسم أخر من الرقباء يمكن التعبير عنه بـ(الفضولي) وأخر مكلف بالتجسس على المحبين والتعرف على أخبارهم فذلك ممن ينبغي أن يرضى، فأن لم يرضَ، استعمل المحبان الإشارة بالعين وما إلى ذلك مما لا يلحظه الرقيب، وفي ذلك بعض الغناء ثم قد يحب محبان؛ محبوبا واحدا، فيرقب أحدهما الأخر. وغير ذلك وقد تحدث بين الرقباء والمراقَبين حوادث طريفة أو عنيفة، خصوصا إذا كان الرقيب عاشقا؛ قد عرف أسباب التخفي ووسائله، فهو يفسدها على من يرقبهما، فيطلع على أسرارهما.

وقد انشد (ابن حزم) -لنفسه- جمله من المقطوعات والأبيات منها بيت جميل هو قوله:

على كل من حولي رقيبان رقبا وقد خصني ذو العرش منهم بثالث[١٠١]

الرقيبان هما الملكان أما هو -العاشق- فقد أضيف إلى رقيبيه الملكين رقيب ثالث من الناس فما أقسى هذا؟

على عكس هذه القسوة؛ ترضّي الرقيب على المتحابين، وتحويله إلى رقيب لهما؛ يعبر عنه بقوله:-

صار حياة وكان سهم ردى وكان سما فصار ترياقا[١٠٢]

وماذا يفعل الرقيب؟!

ولماذا يراقب إذا لم يكن مغرما بالوشاية؟!

من هنا؛ يعرِّف (ابن حزم) في باب الواشي -الباب التاسع عشر- (الواشي) بقوله:- ''وما في جميع الناس شر من الوشاة، وهم النمامون''[١٠٣]. ومن الطريف إن (ابن حزم) لا يدقق حتى في الأرقام التي يذكرها وهذا دليل على أنه جار على سجيته فمن ذلك قوله:- ''من آفات الحب الواشي، وهو على ضربين. أحدهما واش يريد القطع بين المتحابين فقط، و إن هذا لأفترهما سوأة،على أنه السم الذعاف''[١٠٤] فهذا هو الضرب الأول الذي تحدث عنه في أكثر من صفحتين حيث يأتي الضرب الثاني الذي يقول عنه:- ''والثاني واش يسعى للقطع بين المحبين لينفرط بالمحبوب، ويستأثر به. وهذا اشد شئ، وأفظعه''[١٠٥]

''ومن الوشاة جنس ثالث وهو واش يسعى بهما جميعا ويكشف سرهما، وهذا لا يلتفت إليه إذا كان المحب مساعدا''[١٠٦]، فقد نسي إنه جعل الوشاة على ضربين في أول الباب. وإنما جرى في هذا على قلة تدقيقه. و(ابن حزم)؛ يعد الواشي نماما ويعد الوشاية والنميمة شكلا من أشكال الكذب الذي يستبشعه ويورد الآيات القرآنية الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة؛ مسندة، للدلالة على خطئه وخطره. ويفرق بين أمرين مهمين؛ طالما خلط الناس بينهما؛ هما:- الناصح والنمام؛ فيقول:- ''وهل هلك الضعفاء، وسقط من لا عقل له، إلا في قلة المعرفة بالناصح من النمام، وهما صفتان متقاربتان في الظاهر متفاوتتان في الباطن، إحداهما داء و الأخرى دواء. والثاقب القريحة لا يخفى عليه أمرهما''[١٠٧] ومن جميل ما انشد في هذا الباب:-

''أنم من المرآة في كل ما درى وأقطع بين الناس من قصب الهند

أظن المنايا والزمان تعلما تحيله بالقطع بين ذوي الود''[١٠٨]

ومن الطريف انه أخّر باب الوصل -الباب العشرين- عن أبواب العاذل والرقيب والواشي وما إلى ذلك فلماذا يعذل العاذل؟!

وماذا يرقب الرقيب؟!

وبماذا يشي الواشي؟!

إذا لم يكن هنالك وصل يرقبه أو يعذل بسببه ويشي به؟!

ومع ذلك فقد وصف (ابن حزم)؛ الوصل وصفاً جميلاً حين قال وأطال ومما قال:- ''ومن وجوه العشق الوصل، وهو حظ رفيع، ومرتبة سرية، ودرجة عالية، وسعد طالع؛ بل هو الحياة المجددة، والعيش السني، والسرور الدائم، ورحمة من الله عظيمة.''[١٠٩] وذكر أخبارا وأنشد فيها لنفسه أشعارا باردة أو رائقة، فمن الأبيات الجميلة التي أنشدها هذه القطعة:-

''و سائل لي عما لي من العمر و قد رأى الشيب في الفودين و العذر
أجبته: ساعة ، لا شئ أحسبه عمرا سواها بحكم العقل و النظر
فقال لي: كيف ذا ، بينه لي ، فلقد أخبرتني أشنع الأنباء و الخبر
فقلت: إن التي قلبي بها علق قبلتها قبلة يوما على خطر
فما أعُدّ ، ولو طالت سنيّ سوى تلك السويعة بالتحقيق، من عمري''[١١٠]

والهجر ضد الوصل -وهو الباب الحادي والعشرون- والذي يقول عنه:-

''ومن آفات الحب أيضا الهجر، وهو على ضروب: فأولها هجر يوجبه تحفظ من رقيب حاضر، و إنه لأحلى من كل وصل''[١١١]

وواضح إن هذا الضرب والضربين اللذين يأتيان بعده -عند (ابن حزم)- مما هو الوصل أو أحلى من الوصل يقول:- ''ثم هجر يوجبه التدلل ألذ من كثير الوصال''[١١٢]، كذا يقول:- '' ثم هجر يوجبه العتاب لذنب يقع من المحب، وهذا فيه بعض الشدة، لكن فرحة الرجعة، وسرور الرضى، يعدل ما مضى''[١١٣] ولا هجر إلا بعد وصال. قد توجبه الظروف أو يقع بسبب السأم والملل وقد تنبه (ابن حزم) إلى ذلك. وبعد الوصل والهجران وقبلهما؛ يطلب الوفاء -الذي جعله الباب الثاني والعشرين- فقال عنه:- ''ومن حميد الغرائز، وكريم الشيم، وفاضل الأخلاق في الحب وغيره، الوفاء، وإنه لمن أقوى الدلائل، وأوضح البراهين على

طيب الأصل''[١١٤] ويقول:- ''ثم مرتبة ثانية وهو الوفاء لمن غدر، وهي للمحب دون المحبوب، وليس للمحبوب هاهنا طريق، ولا يلزمه ذلك''[١١٥] من هنا يقرر أن ''من قابل الغدر بمثله فليس بمستأهل للملامة''[١١٦] و يقول:- ''ثم مرتبة ثالثة، وهي الوفاء مع اليأس البات، وبعد حلول المنايا، وفجآت المنون، وإن الوفاء في هذه المرحلة لأجلّ وأحسن منه في الحياة ومع رجاء اللقاء''[١١٧] فللوفاء -على هذا- ثلاث مراتب وفي شأن الوفاء يقول:- ''واعلم إن الوفاء على المحب أوجب منه على المحبوب، وشرطه له الزم، لأن المحب هو البادئ باللصوق والتعرض لعقد الأذمة''[١١٨] كذلك يقول:- ''وإنما يحمد الوفاء، ممن يقدر على تركه''[١١٩]. ومع إن المتبادر أن الوفاء -في هذه الرسالة- مما يتعلق بالعاشقين إلا إن موضوع الوفاء أوسع من هذا بكثير؛ من هنا انفتح له أن ينشد لنفسه أشعارا، وأن يروي عنها أخبارا تتحدث عن شدة وفائه، وهي مسألة مبثوثة في الرسالة؛ ما أمكن لذلك سبيلا، فبعض الوفاء مما كان بين النساء والرجال، وبعضه مما كان بين الرجال حصرا، وعلى كل حال فالوفاء والغدر ليسا مقصورين على جنس من جنسي البشر، والوفاء مطلوب من العاشقين ومن غيرهم، والغدر مرذول؛ أيا كان الغادر. من هنا تلا باب الوفاء باب الغدر الذي هو نقيض الوفاء الذي قال في أوله:- ''و كما أن الوفاء من سري النعوت، ونبيل الصفات، فكذلك الغدر من ذميمها ومكروهها، وإنما يسمى غدرا من البادي به. وأما المقارض بالغدر على مثله، وإن استوى معه في حقيقة الفعل، فليس بغادر ولا هو معيبا بذلك، والله عز وجل يقول: ((وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا))[١٢٠] ''[١٢١] ثم يذكر السفير الغادر حين يقول:- ''ومن قبيح الغدر، أن يكون للمحب سفير إلى محبوبه، يستريح إليه بأسراره، فيسعى حتى يقلبه إلى نفسه، ويستأثر به دونه''[١٢٢] يليه بأبيات وخبر؛ تدور حول السفير الغادر وخطره، ثم لا يتوسع في هذا الباب؛ مع أن التوسع فيه ممكن، وكان يمكنه أن يضم هذا الجانب من البحث؛ إلى باب السفير، لكنه سار هذا المسار؛ في جملة من أبواب الكتاب، ثم يتحدث عن البين -في الباب الرابع والعشرين- إذ يقول:- ''و قد علمنا أنه لابد لكل مجتمع من افتراق، ولكل دان من تناء''[١٢٣] وعلى عادته يقسم البين أقساما وينشد فيه لنفسه ولغيره أشعارا

ويروي عن نفسه وعن غيرها أخبارا تبين أنه وفيّ، والبين قد ينشأ لهجر أو بدون هجر وقد يخفى على البعض الفارق بينهما وعليه يقول:- '' واختلف الناس في أي الأمرين أشد: البين أم الهجر؟ وكلاهما مرتقى صعب، وموت احمر''[١٢٤]...الخ وهي التفاتة ظريفة من ظريف يبين ما بين البين والهجر من اتفاق، كما يبين ما بينهما من اختلاف حين يقول:- ''وأما الهجر فهو داعية السلو، ورائد الإقلاع''[١٢٥] وإذ يقع البين –البعد- يحتاج المحب إلى القناعة؛ من هنا يفتح (ابن حزم) الباب الخامس والعشرين -باب القنوع- ليقول:- ''ولا بد للمحب، إذا حرم الوصل، من القنوع بما يجد، وإن في ذلك لمتعللا للنفس، وشغلا للرجاء، وتجديدا للمنى، وبعض الراحة. وهو مراتب على قدر الإصابة والتمكن. فأولها الزيارة، وإنها لأمل من الآمال''[١٢٦]...الخ ويستمر في تقسيماته وتفريعاته ينشد الأشعار لنفسه ويروي الأخبار عن نفسه وعن غيرها منتبها إلى إن ''من القنوع الرضا بمزار الطيف، وتسليم الخيال''[١٢٧] فإذا لم يقدر المحب الذي بان عنه محبوبه وقع له الضنى -الذي له الباب السادس والعشرون- والذي يقول فيه:- ''و لا بد لكل محب صادق المودة، ممنوع الوصل، إما ببين، وإما بهجر، وإما بكتمان واقع لمعنى، من أن يؤول إلى حد السقام والضنى والنحول، وربما أضجعه ذلك''[١٢٨] وقد ضني محبون ذكر أخبارهم وسمى بعضهم؛ ذهب إلى إنهم وسوسوا أو حدث لهم اختلاط في العقول مع أنهم -في الأصل- من الأدباء والعلماء وبعد الضنى – وهو ضده- السلو -الذي كان له الباب السابع والعشرون- الذي قال عنه:- ''وأما أعراض الدنيا فنافذة فانية وزائلة مضمحلة، وعاقبة كل حب إلى أحد أمرين: إما اختزام منية، وإما سلو حادث''[١٢٩]، ولعله دليل على أن الرجل متشائم؛ تحدث عن أنواع السلو وفرق بينه وبين النسيان حين قال:- ''والناسي ضد هذا''[١٣٠] أي أن الناسي ضد السالي وهكذا فرق بين السلو والهجر والملل والنفار وما إلى ذلك مما يقبل أو مما يستنكر منشدا الأشعار راويا الأخبار في تأييد ما يقول وله - في هذا الباب- عبارة جميلة يجدر ذكرها وإن كانت خارجة عن باب السلو هي قوله:- ''وإنما النساء رياحين متى لم تتعاهد نقصت وبنية متى لم يهتبل بها استهدمت''[١٣١] وهذا أحد أحوال النساء عنده.

وبعد السلو يأتي الموت في الباب الثامن والعشرين وهما متضادان يقول (ابن حزم):- ''وربما تزايد الأمر ورق الطبع، وعظم الإشفاق، فكان سببا للموت، ومفارقة الدنيا، وقد جاء في الآثار:- من عشق فعف فمات فهو شهيد. وفي ذلك أقول قطعة، منها:

فإن أهلك هوى أهلك شهيدا وإن تمنن بقيت قرير عين

روى هذا لنا قوم ثقات ثووا بالصدق عن جرح ومين''[١٣٢]

وفي الباب جملة أخبار عن رجال أو نساء عشقوا فماتوا عشقا أو أوشكوا أن يموتوا. تلا ذلك الباب التاسع والعشرون باب قبح المعصية الذي تحدث فيه عن قبح المعصية مبينا أن تعرض النساء للرجال أو تعرض الرجال للنساء؛ مما يؤدي إلى المعصية ومن جميل ما انشد لنفسه في هذا الباب قوله:-

''لا تلم من عرض النفس لما ليس يرضى غيره عند المحن

لا تقرب عرفجا من لهب و متى قربته قامت دخن

لا تصرف ثقة في أحد فسد الناس جميعا و الزمن

خلق النسوان للفحل كما خلق الفحل بلا شك لهن

كل شكل يتشهي شكله لا تكن عن أحد تنفي الظنن

صفة الصالح من إن صنته عن قبيح أظهر الطوع الحسن

وسواه من إذا ثقفته أعمل الحيلة في خلع الرسن''[١٣٣]

إضافة إلى آيات قرآنية كريمة وأحاديث نبوية شريفة وأثار وأشعار وأخبار تبين قبح المعصية. وعليه فقد عقب في الباب الثلاثين -باب فضل التعفف- بقوله:- ''ومن أفضل ما يأتيه الإنسان في حبه التعفف، وترك ركوب المعصية والفاحشة، وألا يرغب عن مجازاة خالقه له بالنعيم في دار المقامة... لحري أن يسر غدا يوم البعث ويكون من المقربين في دار الجزاء وعالم الخلود''[١٣٤] وذكر أخبارا تدل على إمكان التعفف كما انشد لنفسه أطول قصيدتين له في الكتاب تحثان على التعفف وتخوفان من المعاصي وتذكران بما في الجنان، وهو دأب الخطباء والوعاظ، وهو ما يبدو أنه كان من مقاصده، وعلى كل حال فقد قدم المرأة الأندلسية ضمن المجتمع الأندلسي وما فيه من حب وبغض وألاعيب ومخاطر تحيق بالمحبين

وتحيط بهم في مجتمع يزخر بالمتناقضات، ففيه الحياة بكل عنفوانها والحياء بلطفه وخفره؛ كل ذلك يظهر على شاشة هذا الكتاب الصغير الدقيق -في كثير من الأحيان- على غير تعمق، ولا رجوع إلى المعجمات في التعبير عن معاني المصطلحات في أحيان أخرى، فهو يعتمد على واعيته في شرح مصطلحاته المتمثلة في أغلب عنواناته، وقد بدا كلا الأمرين فيما سلف من قراءة مبتسرة للكتاب مختصرة لجانبي الحب والمرأة، ومع أنهما قد لا يكونان الجانبين الأهم عند (ابن حزم) لكنهما الجانبان الأبرز عنده والأهم عند الكثيرين، وعلى كل حال، فهذه المطالعة اليسيرة، لا تغني عن قراءة الكتاب قراءة متأنية لذات الكتاب أو ضمن رسائل الكاتب أو ضمن مجموع مؤلفاته أو ضمن حياته وربما بعدها، ففي كل دائرة من هذه الدوائر مغاليق تحتاج إلى فتح، وهذه الفتوح؛ محتاجة إلى فاتحين أذكياء حاذقين؛ قادرين على التوغل في الشوك؛ دون أن يخزهم؛ مجتارين للعسل دون أن يصيبهم قرص النحل فكم هذا ممكن؟! كم يمكن الوصول إلى الحق دون عناء؟ هذا ما لا يتيسر أبدا.

خلاصة البحث وبعض نتائجه

تعد رسالة طوق الحمامة في الألفة والألاف لـ(ابن حزم) الأندلسي؛ رسالة مهمة مقروءة من الكثيرين، فقد حظيت بنشرات كثيرة، وبطبعات أكثر لمحققين متعددين ومتنوعين؛ كل منهم حقق الكتاب لغرض، وليس من شأننا تتبع النشرات والطبعات ولا أسباب التحقيق، لكن من شأننا التنبيه على أن من حق المهتم بهذا البحث أن يعرف أن له سببا هو أن بعض وسائل الإعلام المتنوعة؛ تحرّض على رفض الحب، فرأيت أن اعرض هذا الكتاب؛ مبينا أن هناك جملة من الفقهاء والمفكرين العرب والمسلمين؛ تناولت موضوعة الحب، فأباحتها، فكيف نرفضها ونحن ندعو إلي المودة والرحمة؟!

إن الكتاب يبين أن المراد بالحب، ليس مجرد العلاقة الخاصة، بين الرجل والمرأة - على أهميتها، ومع أنها طبيعية مقبولة دينيا - فقد جاء في القرآن الكريم؛ أهم مصدر للتشريع الإسلامي: - ((وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ)) (الروم: ٢١)، ثم أن الكتاب يعرض لمجموعة من الظواهر الموجودة في الأندلس -عبر الأندلس- لكنها قد توجد خارجها منها استغراب الناس كتابة فقيه مثل (ابن حزم) عن الحب مع أن (ابن حزم) نفسه؛ استغرب تبسم فقيه لسماعه شيئا عن الحب وتمنى لصاحبه عقد المودة، وسوّغتُ هذا بأن من واجب الفقهاء، الاهتمام بالحب لأنه يقع ضمن مجال الحِل والحرمة، وهو عملهم. كما بيّن الكثير من شأن المرأة الأندلسية -حرة وجارية؛ محبة ومحبوبة- فضلا عن ذكره -عفوا- بعض صناعات النساء في الأندلس؛ معرّفا أن أول أمر تربيته؛ كان بأيدي النساء، وطبيعي أنه لم يكن الأندلسي الوحيد في هذا، غير أن أهم قضية من قضايا هذا الكتاب؛ أنه استثمر الحب، وغرضه سياسي هو الدعاية لبني أمية أصفيائه، وهي مسالة يصعب كشفها -لولا التحليل والتعليل- يمكن سحبها على الكثير من الكتب والرسائل والموضوعات النثرية والقصائد الشعرية التي تظهر شيئا، وغرضها شيء آخر، والتي ينبغي التنقير فيها للوصول إلى أهدافها الحقيقية.

وعلى كل حال، فهذه الإشارات اليسيرة، لا تغني عن قراءة الكتاب قراءة متأنية لذات الكتاب أو ضمن رسائل الكاتب أو ضمن مجموع مؤلفاته أو ضمن حياته وربما بعدها، ففي كل دائرة من هذه الدوائر مغاليق تحتاج إلى فتح، وهذه الفتوح؛ محتاجة إلى فاتحين أذكياء حاذقين؛ قادرين على التوغل في الشوك؛ دون أن يخزهم؛ مجتارين للعسل دون أن يصيبهم قرص النحل فكم هذا ممكن؟! كم يمكن الوصول إلى الحق دون عناء؟ هذا ما لا يتيسر أبدا.

هوامش البحث:

[1]- البحث مطور عن محاضرة ألقيتها ضحى يوم الأربعاء ٢٠٠٧/١٠/٣١؛ ضمن فعاليات منتدى نازك الملائكة النسوي؛ في الاتحاد العام للأدباء والكتاب في العراق وعلى قاعته؛ أعيد إلقاء المحاضرة في ضحى الاثنين ٢٠٠٨/١/١٤ على قاعة الاجتماعات ضمن الموسم الثقافي للكلية التربوية المفتوحة، والبحث مقبول ومناقش في ندوة بغداد السابعة عشرة التي أقامها قسم اللغة العربية في كلية التربية للبنات على قاعة المصطفى في اليومين ٢٢-٢٠٠٨/٤/٢٣ وشكرت كلية التربية للبنات الباحث على بحثه رسمياً.

[2]-الروم ١٢١.

[3]- طوق الحمامة في الألفة والألاف ابن حزم الأندلسي، حققه وقدم له: صلاح الدين القاسمي، ص ١٥٢، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، الدار التونسية للنشر، ١٩٨٦ ، و سيكون معوّل هذه الدراسة؛ على هذه النسخة.

[4]- مصارع العشاق، أبو محمد جعفر بن أحمد السراج (ت ٥٠٠ هـ =١١٠٦م) ط بيروت ١٩٥٨.

[5]- ذم الهوى، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن ابن الجوزي البغدادي (ت ٥٩٧ هـ) ط ١ بيروت مؤسسة الكتب الثقافية ١٩٩٨م.

[6]- ديوان الصبابة، أحمد بن يحيى بن أبي حجلة المغربي (ت ٧٧٦ هـ = ١٣٧٥ م) على هامش (تزيين الأسواق بتفصيل أشواق العشاق) ط مصر ١٢٩١.

[7]- (تزيين الأسواق بتفصيل أشواق العشاق) داود بن عمر البصير الأنطاكي (ت ١٠٠٨ هـ =١٥٩٩ م) ط مصر ١٢٩١.

[8]- منهم (آنخل جنثالث بالنثيا) في كتابه تاريخ الفكر الأندلسي تعريب حسين مؤنس ط١ ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة مايو ١٩٥٥، على ص ٧٤؛ قائلاً:- ''و ربما كان أهم شعراء الأندلس الذين عاشوا في فترة انهيار الخلافة ابن حزم القرطبي، المكثر في كل ناحية من نواحي الفكر والآداب، ونجد أكبر مجموعة من شعره في ((كتاب طوق الحمامة في الألفة والألاف)) وهو دراسة نفسية للحب''

[9]- أدباء العرب في الأندلس وعصر الانبعاث –حياتهم- آثارهم –نقد آثارهم، بطرس البستاني، ص ١٩٨، ط٦، دار المكشوف ودار الثقافة، بيروت– لبنان، آذار ١٩٦٨.

[10]- تنظر أطروحة الباحث المعنونة:- (ملامح قصصية في الرسائل الأدبية النثرية الأندلسية بين القرنين الخامس و الثامن الهجريين) على ص ١٦٧ وما بعدها.

[11]- في الشطر الثاني من هذا البيت خطأ عروضي وقد أنشدته كما في الكتاب دون ما تدخل.

[12]- طوق الحمامة، ص٤٣.

[13]- م.ن، ص ٤٣.

[14]- م.ن، ص ٤٣- ٤٤.

[15]- م.ن، ص ٤٤.

[16]- م.ن، ص ٤٤.

[17]- م.ن، ص ٤٤.

[18]-م.ن، ص ٤٤.

[19]- م.ن، ص ٤٥.

[20]- م.ن، ص ٤٥.

[٢١] - م.ن، ص ٤٧.

[٢٢] - م.ن، ص ٤٧.

[٢٣] - م.ن، ص ٤٨-٤٩.

[٢٤] - فلاحي الحدائق.

[٢٥] - م.ن، ص ٤٩.

[٢٦] - م.ن، ص ٤٩.

[٢٧] - الحب.

[٢٨] - طوق الحمامة ص ٥٠.

[٢٩] - القرآن الكريم، سورة الأعراف من الآية ١٨٩.

[٣٠] - طوق الحمامة ، ص ٥٠.

[٣١] - م.ن،ص ٥٠.

[٣٢] - م.ن، ص ٥٥.

[٣٣] - م.ن، ص ٥٧.

[٣٤] - م.ن، ص ٥٨.

[٣٥] - م.ن، ص ٥٨.

[٣٦] - م.ن، ص ٥٩.

[٣٧] - م.ن، ص ٦٠.

[٣٨] - م.ن، ص ٦٨.

[٣٩] - م.ن، ص ٦٨.

[٤٠] - م.ن، ص ٦٩.

[٤١] - م.ن، ص ٧٠-٧١ .

[٤٢] - م.ن، ص ٧١.

[٤٣] - م ن ص ٧٥.

[٤٤] - م.ن، ص ٧٥ .

[٤٥] - ينظر طوق الحمامة ، ص ٧٥.

[٤٦] - طوق الحمامة ، ص ٧٨.

[٤٧] - م.ن، ص ٧٩.

[٤٨] - م.ن، ص ٧٩.

[٤٩] - م.ن، ص ٨٠.

[٥٠] - م.ن، ص ٨٢.

[٥١] - م.ن، ص ٨٣.

[٥٢] - م، ن ، ص ٨٤ .

[٥٣] - م.ن، ص ٨٨ .

[٥٤] - م ، ن ، ص ٨٩.

[٥٥]- م ، ن، ص٩١.

[٥٦]- م ، ن ، ص٩٤.

[٥٧]- م.ن، ص ٩١.

[٥٨]- م.ن، ص ٩٢.

[٥٩]- م.ن، ص ٩٤.

[٦٠]- م ، ن ، ص٩٦.

[٦١]- م.ن، ص ٩٧.

[٦٢]- ينظر الخبر في طوق الحمامة ص ٩٨.

[٦٣]- م ، ن ، ص ٩٩ .

[٦٤]- طوق الحمامة ص ٩٩، ١٠٠.

[٦٥]- م.ن، ص ١٠٢.

[٦٦]- م، ن ، ص١٠٤ .

[٦٧]- م.ن، ص ١٠٤.

[٦٨]- م.ن، ص ١٠٦ ، ١٠٧ .

[٦٩]- م.ن، ص ١٠٧.

[٧٠]- م.ن، ص ١٠٧.

[٧١]- ينظر الإعلان الشعري في التراث العربي القديم ، دكتور خليل محمد إبراهيم مجلة التربية الأساسية ص١٣٧،١٣٨ ع ٤٩ لسنة ٢٠٠٦

[٧٢]- م ، ن ، ص ١٠٨ .

[٧٣]- م.ن، ص ١٠٨.

[٧٤]- م.ن، ص ١٠٨.

[٧٥]- ينظر طوق الحمامة ص ١١٠ و ١١١.

[٧٦]- ينظر طوق الحمامة ص ١١٢ و ١١٣.

[٧٧]- م ، ن ، ص ١١٥ .

[٧٨]- طوق الحمامة ص ١١٥.

[٧٩]- م.ن، ص ١١٥.

[٨٠]- م ، ن ، ص ١١٦ .

[٨١]- م.ن، ص ١١٦.

[٨٢]- م.ن، ص ١١٦ و ١١٧.

[٨٣]- م ، ن ، ص ١١٨ .

[٨٤]- م.ن، ص ١١٨.

[٨٥]- م.ن، ص ١١٩.

[٨٦]- م.ن، ص ١٢٠،١١٩.

[٨٧]- م.ن، ص ١٢٠.

[88]- م.ن، ص ١٢١.
[89]- م ، ن ، ص ١٢٦.
[90]- ينظر طوق الحمامة ص ١٢٨.
[91]- طوق الحمامة ص ١٢٨.
[92]- م ، ن ، ص ١٣٥ .
[93]- ينظر م ، ن ، ص ١٤١ .
[94]- ينظر م ، ن ، ص١٤٣ .
[95]- م ، ن ، ص ١٦١.
[96]- ينظر م ، ن ، ص ١٦٤.
[97]- ينظر م، ن ، ص ١٨٧ ،١٨٨.
[98]- م ، ن ، ص ١٨٥.
[99]- م ، ن ، ص ١٢٢.
[100]- م.ن، ص ١٢٢.
[101]- م.ن، ص ١٢٤.
[102]- م.ن، ص ١٢٤.
[103]- م.ن، ص ١٢٩.
[104]- م.ن، ص ١٢٦.
[105]- م.ن، ص ١٢٨.
[106]- م.ن، ص ١٢٨.
[107]- م.ن، ص ١٣٤.
[108]- م.ن، ص ١٣٣.
[109]- م.ن، ص ١٣٥.
[110]- م.ن، ص ١٣٦.
[111]- م.ن، ص ١٤٦.
[112]- م.ن، ص ١٤٩.
[113]- م.ن، ص ١٥٠.
[114]- م.ن، ص ١٦١.
[115]- م.ن، ص ١٦٢.
[116]- م.ن، ص ١٦٢.
[117]- م.ن، ص ١٦٤.
[118]- -م.ن، ص ١٦٥.
[119]- م.ن، ص ١٦٥.
[120]- القرآن الكريم سورة الشورى: من الآية٤٠.
[121]- م.ن، ص ١٦٨.

[١٢٢]- م.ن، ص ١٦٩.

[١٢٣]- م.ن، ص ١٧٠.

[١٢٤]- م.ن، ص ١٨٠.

[١٢٥]- م.ن، ص ١٨٠.

[١٢٦]- م.ن، ص ١٨٥.

[١٢٧]- م.ن، ص ١٨٨.

[١٢٨]- م.ن، ص ١٩٦.

[١٢٩]- م.ن، ص ٢٠٠.

[١٣٠]- م.ن، ص ٢٠٢.

[١٣١]- -م.ن، ص ٢٠٩.

[١٣٢]- م.ن، ص ٢١٣.

[١٣٣]- م.ن، ص ٢٣١.

[١٣٤]- م.ن، ص ٢٤٩-٢٥٠.

قائمة بأهم مصادر البحث ومراجعه

١. القرآن الكريم.

٢. أدباء العرب في الأندلس وعصر الانبعاث –حياتهم- آثارهم – نقد آثارهم، بطرس البستاني، ط٦، دار المكشوف ودار الثقافة، بيروت – لبنان، آذار ١٩٦٨.

٣. تاريخ الفكر الأندلسي (آنخل جنثالث بالنثيا) تعريب حسين مؤنس ط١ ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة مايو ١٩٥٥.

٤. تزيين الأسواق بتفصيل أشواق العشاق) داود بن عمر البصير الأنطاكي (ت ١٠٠٨ هـ =١٥٩٩ م) ط مصر ١٢٩١

٥. ديوان الصبابة، أحمد بن يحيى بن أبي حجلة المغربي (ت ٧٧٦ هـ = ١٣٧٥ م) على هامش (تزيين الأسواق بتفصيل أشواق العشاق) ط مصر ١٢٩١.

٦. ذم الهوى، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن ابن الجوزي البغدادي (ت ٥٩٧ هـ) ط ١ بيروت مؤسسة الكتب الثقافية ١٩٩٨م.

٧. طوق الحمامة في الألفة والألاف ابن حزم الأندلسي، حققه وقدم له: صلاح الدين القاسمي، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، الدار التونسية للنشر، ١٩٨٦ طبعة فريدة ومنقحة.

٨. مجلة التربية الأساسية ع٤٩ لسنة ٢٠٠٦ الإعلان الشعري في التراث العربي القديم، دكتور خليل محمد إبراهيم.

٩. مصارع العشاق ، أبو محمد جعفر بن أحمد السراج (ت ٥٠٠ هـ =١١٠٦م) ط بيروت ١٩٥٨.

١٠. ملامح قصصية في الرسائل الأدبية النثرية الأندلسية من القرن الخامس إلى القرن الثامن الهجريين، أطروحة تقدم بها (د. خليل محمد إبراهيم حسين علي)، قسم اللغة العربية، كلية الآداب، جامعة بغداد، شوال ١٤٢٣هـ - كانون الأول ٢٠٠٢م.